حسن حنفي وتحوُّلات الهويّة

د . شريف الدين بن دوبه[1]

الهوية ليست تطابقا،

وإنما هي اختلاف... "أدونيس"

الموضوع والمنهج:

تقليد المعلّم، ومحاكاته عزّة، وفخر للمتعلِّم، فتحديد الموضوع، ومنهج الدراسة من الأوّليات التي تعلّمناها من فيلسوفنا الكبير حسن حنفي؛ فهي مفاتيح البحث، ومداخل الدراسة.. فلا وضوح للرؤية دون تحديد، وضبط للمفاهيم... والأطر المفاهيمية المركزية في الدراسة متعلّقة بالهويّة التي رسخت في ذهن المتلقّي دلالة الثبات والاستقرار، والسكونية، والجمع بينها، وبين التحول في قضية منطقية يطرح تنافرا تصادميا لا يقرّ الذهن فيه بدلالة إلا بإقصاء الأخرى.

ونجد في أطروحة فيلسوفنا حسن حنفي محاولات جادة في إقامة ردم للهوّة القائمة بين الثبات، والتحوُّل الهوياتي، فالتحوّل عند فيلسوفنا خاصية ماهوية للهوية الثابتة أيضا، وإن كان في الحدث عرضيا، حيث نجده تغيُّرا حادثا على الذات، أو المجال الوجودي للكائن، فلا إشكال، ولا إنقسام، ولا تصدع في بنية الهوية، ووحدتها، حينما تعيش الهوية الفردية اغترابا عن معلم السكونية، فهي بطبيعتها مجالا لتصارع الأضداد، فهي وحدة متعدّدة، وتعّدد موحّد، فكل مؤشّر، ومبدأ يقام للخروج بحكم تقريري حول الهوية الشخصية يكون نسبيا، ومحاكيا للمعلم الغاليلي الذي أقامه علماء الفيزياء لقياس الحركة في الأرض، فهو ليس مبدأ مطلق، بل قاعدة تحدّد فيه نقطة الإقلاع نسبياً، وكذلك فالوحدة التي تتمتع بها الهوية، أصبحت نسبية، انطلاقا من نقطة الحركة التي تكون زاوية المنظور

---

(1) **د. شريف الدين بن دوبه:** أستاذ محاضر شعبة الفلسفة– جامعة سعيدة– الجزائر.

(ISSN : 2536 - 9555)

بها للظاهرة، فالهوية معطى فلسفي، وسيكولوجي، وسياسي، وكل حكم يكون بالنسبة في موقف الآخر مجرد رأي.

ومن خلال المنهج الفينومينولوجي الذي يعتمده الفيلسوف حسن حنفي تأخذ الهويّة مسارا ذاتيا متمثلا في منظور الذات لذاتها، والذي يكون رأس مال في بناء، وتوازن الهويّة الشخصية، والذي يحتمل أن يأخذ الشخصية إلى المجال الذي تنحرف بها عن القاعدة، ومنظور بين الذوات، الذي ينطلق من رؤية الهويات ككائنات تتقاطع في صفات عضوية، واجتماعية، المواطنية كأنموذج في ذلك، وكهويات مستقلة بإثنياتها، والتي تنطلق من خلفيات لاشعورية تشير إلى خطرها على الوجود بالنسبة للآخر، وقضية العرب، والمسلمين مع إسرائيل، وبينهما (المسألة القومية)، فتجاذبات، وتردُّدات الذات بين محاور الاستقطاب الذاتية، والموضوعية تفرض تحولات، وانتقال للهوية من محور لآخر، ومن مقام لآخر.

والباحث في تراث حسن حنفي المكتوب، والشفوي (محاضرات) يجد هاجس، وقلق الذاتية كهوية فردية، وكهوية جماعية، بارزا في كتاباته، ودراساته، فمشروع حسن حنفي الفكري بحث عن الهوية المغيبة، هوية الأنا الجمعي (الرهطي) التي لم تخرج من وضعيتها الهاملتية، فلا زالت مشكلتها في أن تكون أو لا تكون :" To be or not to be That Is the question" فأزمتها مع تراثها الذاتي.

والدراسات العربية المعاصرة، في قراءة التراث، وتقييمه لازالت مسألة بحثية في الفكر العربي المعاصر، والأستاذ حنفي في مشروعه التراث والتجديد يطرح آلياته التفكيكية، ويضع أنامله على فراغات التراث التي عملت على تشظية الهوية الذاتية في صورتها الفردية، والجماعية، والذي سنراه في محطة الاعتقاد، ودوره في حركية الهوية، فالاغتراب عند حسن حنفي ليس حالة شعورية ذاتية، فردية، بل هو رؤية للكون، وللنفس، وللآخر.

كما وجد الفيلسوف حسن حنفي مع محمد إقبال المشارك الفكري، والوجداني لأزمة التراث، وإشكالية الوجود، فأصبح فيلسوفا للذاتية عند فيلسوفنا، وشريكا في المشروع الذي أسسه، يقول:" .. يمكن تبويب أعمال إقبال ومحاور فكره طبقا للجبهات الثلاث في مشروع التراث والتجديد، والموقف من التراث القديم، الموقف من التراث الغربي، الموقف من الواقع.. وبلغة إقبال، الأنا أو الذاتية، والآخر أو الذاتية المضادة، والواقع الذي يتم فيه التفاعل بين الذاتية والذاتية المضادة، والواقع الذي يتم فيه التفاعل بين الذاتية والذاتية المضادة وصعوبة ذلك تداخل الجبهات الثلاث...."[1].

الهوية والسياق:

"الهويّة موضوع فلسفي بالأصالة"[2]، إقرار الفيلسوف حسن حنفي بالملمح الفلسفي لموضوع الهوية له ما يبرّره، فالجدل الفلسفي، والسياسي حول المبدأ يؤرِّخ للمناحي المتعاكسة التي يملكها، والدلالة التي تحملها خاصية فلسفي أيضا متباينة، فكل ينظر لها من زاويته الخاصة، وما نرغب في الإشارة إليه حول الدلالة التي نرتضيها للخصوصية الفلسفية، اجتنابا لكل لبس، ولكل تحويل، وزحزحة للدلالة التي نراها للفلسفة في هذا البحث.

المعنى الذي تحمله الخصوصية الفلسفية التي نضفيها على الأحكام، يكمن في التعارضات، والسياقات المتعدّدة التي يأخذها التعاطي مع الموضوع، فحضور مفهوم، أو معنى في أنساق متعددة، وفي حقول معرفية متنوِّعة هو الذي يمنح المفهوم أو الاصطلاح تأشيرة الولوج إلى عالم الفلسفة، والمفاهيم الإنسانية بالأصالة مؤهلة أن تكون قرابين في معبد الفلسفة، وإن كانت المفاهيم العلمية كذلك، ولكن بدرجة أقل، اللهم إلا بعد أن تلمس خطوط الإنسان الحمراء أو الصفراء التي رسمها بنفسه لنفسه، فالمسألة تتلون بلون سياقها، كما يأخذ الماء لون إنائه كما يقول العرفاء.

(ISSN : 2536 - 9555)

فالحتمية مثلا كمسألة بحثية، تكون علمية إذا كان سياقها البحثي هو الفيزياء، أو الكيمياء أو البيولوجيا، وفي علوم الإنسان أيضا، أما إذا كانت في مستوى نظري مجرّد، يسعى فيه رجال التأمُّل على الحجاج والبرهنة على غيابه، أو وجودها نكون هنا مع العناكب كما يصطلح عليهم فرنسيس بيكون، وهم رواد المثالية المجرّدة، وهي التي تعرف في تاريخ الفلسفة بالضرورة، وتكون لاهوتية إذا طرحت بالقياس إلى مشروطية الخلق، بالقياس إلى الخالق القادر، والقاهر فوق عباده، وهي التي اصطلح عليها بالجبرية، وما نراه فلسفيا ما يكوِّن تقاطعا بين قطاعات، ومنظومات فكرية مختلفة، فالبحث عن الحرية من خلال اللقاء في النتائج بين المجالات المعرفية المختلفة، فالمبدأ الابستيمولوجي القائل بضرورة التكامل، وأصالته بين المعارف العلمية.

فالهويّة موضوع رئيس عند السياسي، ورجل الدين، وعالم النفس، وعالم الاجتماع، و... وعليه نصطدم خلال قراءتنا للبحث في الهويّة بتصورات متعارضة، تضفي طابعاً إشكاليا على المسألة، ومواقف متباينة في وجهات النظر، فالفلسفة من خلال نخبتها ترى في الهوية قانونا للثبات في الكائن، وعند رجل الدين تكون الهوية تعبيرا ايجابيا عن الصدق، والإخلاص مقابل النفاق الذي يعبِّر عن الازدواجية، والقلق الوجودي الذي يعايشه المتديّن السلبي، الذي لم يدخل الايمان في قلبه على حدّ التوصيف القرآني، ويضعها السياسي مقياسا للمواطنية التي يترتب عليها حقوقا، وواجبات.

وفي العرض الذي يقدّمه فيلسوفنا حسن حنفي للمفاهيم التي عرفتها الهوية عبر مسارها دقة في ضبط المعاني، وسلاسة في الأسلوب يسمح للقارئ العربي مهما كان مستواه الفكري من استيعاب، وإدراك الدلالات التي عرفتها الهوية.

يقدّم الفيلسوف حسن حنفي الهويّة في سياقاتها المتعدّدة، والذي يظهر فيها اطلاعه الرهيب على الحقول المعرفية، والاستعمالية التي درست فيها الهوية،

ولكن الشيء من معدنه لا يستغرب، فالفيلسوف حسن حنفي نموذج الفيلسوف الموسوعي، التقليد الرئيس في الثقافة الإسلامية، فلا تخصص في العلم، والمعرفة عند مفكري الإسلام، إلا ما أوجبت الحاجة في ذلك، كما أن الاطلاع عليها يضع القارئ أمام حدة الأشكلة التي عرفتها المسألة، فكلٌّ سياق يحمل صدقية في تأسيسه البرهاني لمسألة الهوية، ويستبطن في استتباعاته تعارضات، ومحدودية بالقياس إلى نسبية الواقع، فالفيلسوف حسن حنفي يقدم أوجه الأشكلة في كل سياق درست فيه الهوية، والذي تجده في دراسة الفيلسوف بشكل تفصيلي.

الهوية والمكان:

السياق الأول الذي عرفته الهوية هو ارتباطها بالمكان، والجغرافيا، والأدب الإنساني بكل أصنافه شعراً، أو قصصا يخبر عن ذلك، فكتاب الحنين إلى الأوطان" لأبي حيان التوحيدي مثالا على ذلك في الأدب العربي والإسلامي، فالانتماء، والارتباط مع الأرض، أو مسقط الرأس من المسائل الرئيسة في الفكر السياسي، فالمواطنة، والمواطنية من القضايا التي عالجها الفكر السياسي عبر التاريخ، والتطور الذي عرفه مفهوم المواطنة يشير إلى ذلك، فحسب الفكر الغربي، نجد في التراث العربي فكرة الوطن، ولا نجد فكرة المواطنة، وما يهمّنا هنا هو ارتباط الهوية بالمكان، أو الجغرافية، فهناك:" الهوية المصرية نسبة الى مصر، والتونسية نسبة إلى تونس، واليمنية نسبة إلى اليمن، والسورية نسبة سوريا والإقليم هو الجغرافيا وليس للجولة، إذ تتغير حدود الدولة مثل السودان ولكن الإقليم لا يتغير.."[3].

فالارتباط بالمكان جزء من الهوية الإنسانية، حيث لا يقدر الإنسان على العيش خارج المكان، فهو الأرضية والقاعدة المادية لممارسة الوجود الإنساني في جميع مستوياته: الفردية، والجماعية، فالرقعة الجغرافية ركن رئيس في الدولة، ونعتقد بوجود أمور معنوية في تفسير التعلق بالأرض، ومنها العلاقة التكاملية بين الغذاء

(ISSN : 2536 - 9555)

المستخرج من الأرض، والجسد الفردي، فغذاء الجسد، واستمراره ناشئ، ومكوّن من العناصر المادية التي تكوّن تراب الوطن.

وحسب الأستاذ حسن حنفي فإنّ التأسيس النظري للهويّة على مبدأ الارتباط بالمكان غير كاف، وإن كان ضروريا، فالوجود الإنساني قائم على البدن، كمرتكز، ومحدد بيولوجي، مرتبط بالمكان، ولكن الوجود الإنساني كما يقول:" **وجود مثالي في مكان مطلق، فالبدن حامل للروح، أي أن الروح هي المكان والمناطق والإقليم.**"[4]

كما أن الهوية القائمة على المكان بالنسبة لفيلسوفنا حسن حنفي هوية جزئية تعيق الهوية الوطنية، وتفككها، ولا تساهم في بناء المواطنة النموذجية، فالنسب التالية: صحراوي، صعيدي، تلّي (من التل) تفرق الهوية الوطنية إلى هويات جزئية، فالوطن يجمع، والمكان، أو الأقاليم الجغرافية تفرّق.

الهوية والعرق:

يؤسّس البعض من الشعوب، والأقليات هويتهم على فكرة العرق، ويبدو أن التأسيس قائم على شعور بالخوف من الضياع، والتيه، والشتات، فالصراع بين ثقافة المغلوب، وثقافة الغالب مبدأ طبيعي ثقافي، فهو متعلق بغريزة الحفاظ على البقاء عند الجماعة الثقافية، فالصراع صراع وجود، لا صراع حياة، فالحياة إرادة كما يقول نيتشه إرادة قوة لا إرادة حياة.. فالرجوع إلى العرق عن الألمان، له مبررات تاريخية، وثقافية، فالتقسيم الذي عايشته ألمانيا يكمن وراء الدعوة إلى توحيد الإمارات تحت قيادة بروسيا، والذي حصل في 18 يناير 1871 فالرجوع إلى العرق مسألة وجودية، لا تملك مبررات نظرية.

والأستاذ حسن حنفي يناقش هذه الدعوى قائلا: "العرق ليس هو الماهية أو الوجود. العرق هو مادة طبيعية ما دام الإنسان متواجدا بيولوجيا. والأحياء سلالات، ويتفوق الإنسان على غيره من السلالات بأنه حيوان ناطق، أي حيوان

عاقل. ويصعب تحديد الأعراق نظرا إلى التداخل بينهما من خلال التزاوج و الهجرات، بل والحروب والغزوات. وقد يتحد العرق بالطائفة مثل الدروز و الدرزية. والعرق سلالة بيولوجية لا دخل للإنسان فيها. وللإنسان أكثر من سلالة. والهوية لا ترتبط بالسلالة بل بالوعي الخالص. والوعي الخالص هوية خالصة، وعي ذاتي، لا صلة له بالبدن. وكل النظريات العنصرية قائمة على ربط الهوية بالعرق والسلالة.[5]

الهوية والطائفة:

الطائفية واقع اجتماعي، وسياسي، تعيشه الأمة العربية، ودولة لبنان نموذج حيّ على ذلك، وميثاق الطائف الذي بنيت عليه الحكومة اللبنانية، فيه من الدلالة، ومن الإجراء ما يعبِّر عن التقسيم، فرئاسة الجمهورية حق للمسيحيين، ورئاسة الحكومة سنية، ورئاسة البرلمان شيعية، وسؤال الفيلسوف حنفي للطائفية يلمس الدلالة التي ترتبط بالطواف على الماء، فالأصل هو الحركة، والتغير، والتقوقع داخل تصور معين، يتعارض مع روح الجماعة، فهي مجموعة بشرية تسير نحو قصدية معينة، وليست علاقة بين الإنسان، وربه كما يقول حسن حنفي، فهي ولاء ديني تاريخي، وليست هوية، فتأسيس الهوية على الطائفية خطر على النسيج الاجتماعي للدولة، وهذا ما نلاحظ حاليا في الأزمة اللبنانية حيث عجزت الحكومة عن إيجاد حل لرئاسة الجمهورية في ظل التجاذبات الطائفية، وداخل الطائفة الواحدة، فالصراع بين سمير جعجع، والعماد عون هو صراع مسيحي مسيحي حول السلطة، وإن كانت سلطة الرئيس مجرد سلطة صورية، فالطائفية خلاف تاريخي في الدين بين عدة قوى سياسية متصارعة على السلطة ترجمت صراعاتها في شكل عقائد متباينة مثل السنة والشيعة، والكاثوليك والبروتستانت ..فالطائفية إنكار للوطنية وللمواطنة."[6].

(ISSN : 2536 - 9555)

الهوية والدين:

تسييس الدين في صورةِ الهويّة، أو دينمنة الهوية مسألة مرفوضة عند المفكِّر حسن حنفي، فالصراع بين الهويّة الإسلامية والعلمانية مثلا هو صراع على السلطة بين قوتين متعارضتين على حدّ توصيف حسن حنفي، وتاريخ الهوية الدينية يقر بذلك، فاستغلال الجماعات المدنية أو الطائفية للدين أمر بيّن، وجلي، فالدين ليس مطية لجني مكاسب، و الحصول على مناصب، كما يذكر التاريخ، وكما نراه حاليا، فالدين يبكي القيم، والمقاصد، فالدين يعيش اغترابا في هذا العالم، خصوصا مع مريديه، فالدين في اعتقادنا غذاء للروح، وليس مركبا لبلوغ السلطة، كما يعمل الدين على تمزيق الهوية الوطنية الواحدة، **فالوطن كما يقول:"هوية كلية، الدين يفرّق والوطن يجمّع ... ولا فرق بين المسيحي والمسلم واليهودي والوثني في محبة الناس كما عبّر عن ذلك ابن عربي:**

لقد صار قلبي قابلا كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائفــة وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني "[7]

الهوية واللغة:

"العروبة من اللغة العربية، فليست العروبة بأب أو بأم إنما العروبة هي اللسان، فكل من تحدث العربية فهو عربي.فهناك هويّة عربية هي أساس القومية العربية والثقافة العربية."[8] أقامت الحركات القومية الهويبة الوطنية على أساس اللغة، مثل الأمة الألمانية، والإيطالية في مسار توحيد الإمارات، والتي حاول البعض من مفكري العرب الاقتداء بهم، مثل ساطع الحصري [9](1968/1879)..والملاحظ أن التيار القومي في الأمة العربية اصطدم بالتركيبة الدينية التي تكوِّن جزءا رئيسا من الثقافة العربية، حيث عجزت العربية كلغة في

تشكيل هوية صالحة لمقاومة التفكُّك العربي، أمام شراسة الغزو الثقافي الغربي، واحتلال الصهاينة لفلسطين العربية، وقد أكد المستقبل الذي نعيشه حاضرا الآن فشل، وتهاوي المشروع القومي الذي سعى إلى تأسيس الهوية على اللغة.

الهوية والثقافة:

الدلالات التي تأخذها الثقافة كاصطلاح في العلوم الاجتماعية تتلون بجنس التفكير فيها، وقوالب الفكر، وآلياته مخاض ذاتي، خاضع لمحدِّدات شخصية واجتماعية، ومن أهم الرؤى التي نظر بها إلى الثقافة الرؤية الأمريكية، والنظرة الألمانية، فمع تايلور الأمريكي تعيش الثقافة تطابقا دلاليا مع الحضارة، فأصبحت تمثل المنتوج المادي، والمعنوي لبني الإنسان، أما عند الألمان فكانت الجوانب الروحية هي الأصل، والمرجع الدلالي للكلمة، فالهويّة الثقافية، أو هوية النحن، التي هي صورة للهوية المركبة التي تعبِّر عن فردية وذاتية الأنا الجمعي، وهي التي اهتم بالبحث فيها علماء الانتروبولوجيا مثل كلود ليفي ستراوس، والتي تمثِّل في حقيقة الأمر تراكم تاريخي لسلوك الجماعة، والتي تكون بالأصل متغيِّرة، ونسبية، فلا نجد داخل الجماعة الواحدة هويّة واحدة، بل هويّات متعددة.. وعليه تفقد الهوية مشروعية تأسيس هوية عامة، أو كونية، وإن كان الخطر، والقلق الوجودي وراء التأسيس.

الهويّة والتحوّلات:

المستوى المفهومي:

يكشف الحفر اللغوي الذي يجريه الفيلسوف حسن حنفي في مفهوم الهوية عن الاغتراب، والغياب الذي يحمله لفظ الهوية، فهو من خلال مرجعيته الدلالية يشير إلى اللاهوية، وليس الهوية، فإذا كانت الهوية تعبيرا عن الذاتية في معناها المتعارف عليه، فإن المعبر عنه في الحقيقة هو الهو، أي الغير، وليس الأنا الذي ناحت المفهوم للتعبير عنه، فهي كما يقول: "من الضمير "هو" يتحول إلى اسم.

(ISSN : 2536 - 9555)

ومعناه أن يكون الشخص هو هو. هو اسم إشارة يحيل إلى الآخر، وليس إلى الأنا. وهو ما يعادل الحرفين اللاتينين Id. ومنها اشتق أيضًا لفظ Identity."[10].

فالهوية هي إنية بمنظار الآخر، أو هو في كيان إنيته، ويميز لنا فيلسوفنا بينها، وبين الإنية، فيقول: "أما لفظ الإنية فهو فيعادل الحرف اللاتيني Ipse ومنها اشتق Ipseity.

وبالتالي تمنع كل أنانية وخصوصية لأن الهوية تثبت الآخر قبل أن تثبت الأنا. لا يشتق لفظ "الهوية" من ضمير المتكلم المفرد "الأنا" إلا بمعنى الأنانية في مقابل الغيرية. أما لفظ "الإنية" فمشتق من "إن" حرف توكيد ونصب. ومعناه أن يتأكد وجود الشيء، وماهيته من خلال التعريف"، فالهوية إذن من خلال اللغة لا تعبِّر عن القصد من الاصطلاح، والذي هو التعبير عن الذاتية، أو الانسجام مع الذات. ولتجاوز الأزمنة الدلالية يقدِّم المسكيني تفرقة بين الهُوية، والهَوية، فالهُوية بضم الهاء ipséité تستبطن الذاتية التي تعبِّر عن الأنا الفردي، أو التطابق La Memeté والهَوية بفتح الهاء identité التي حسب المسكيني: "..لا تعدو أن تكون مجرد "هم"– le On , Das Man – عمومي ويومي لملة متعبة بالزمان السياسي لدولة حقوقية.."[11].

والتحوُّل الدلالي الذي عرفته الهوية بدأ مع الزحزحة من المعنى الذي يحمله لفظ هو: الذي بدأ مع الوجود استين باليونانية الذي يشمل الوجود بمصداقه العام، إلى الوجود المفكر أو الشيء المفكر res cogitans الذي أصبح فيما بعد الذات المفكرة أو الذات le sujet ، الكوجيتو cogito والذي أخذ مع كانط وهيجل إلى الهو المطابق Das identische selbst وبالفرنسية: Le soi identique.

وعلى حد تعبير المسكيني :" علينا ان نبصر جيدا بانزياحات عدة: من هو نحوي إلى هو منطقي إلى هو انطولوجي ومن ثم إلى هوية انطولوجية في الفلسفة

العربية الكلاسيكية، إلى هوية انثروبولوجية وثقافية في نظام الخطاب السوسيولوجي التاريخي اللاهوتي المعاصر."[12]

فالتحول لا يقع موقع الصفة في التعريف بل هو أصل مرجعي في بناء الدلالة، فالتحول الذي يكون الهويّة، يكون أيضا نهاية الهوية عند حسن حنفي، فالاستقرار على حالة في تكوين، وتركيب الكيان الشخصي، ليس حالة طبيعية بل مرضية، فكل صفة في تركيبة الهوية ليست إلا تعبيرا نسبيا لها، فليست هي الهوية الكلية، بل الخصوصيات الجزئية، أو الهويات البسيطة في مقابل الهوية المركبة للكيان الشخصي، والأصل الدلالي للهوية : Selbstheit عند المسكيني مبني على الاستمرارية في الزمن، أي حركية الوجود أو التهوي حسب تعبير الفيلسوف الكندي.

المستوى المنطقي:

"حولوه إلى قانون الهوية[13]".. الصورنة، والتجريد دأب وديدن الفلاسفة، منذ البدء، واحتقار الحسية في اليومي، وفي التفكير عبر التاريخ علامة للمطلب التجريدي الذي سعى إليه جميع الفلاسفة، وتوصيف الشاعر هاينى Heine لـ هيجل Hegel في عبارته المشهورة :" لقد أقلع هيجل على ظهر سفينته متّجها نحو القطب الشمالي للفكر حيث لا بدّ لعقل المرء أن يتجمّد في صقيع المجرّد، فالقطبية الفلسفية تقوم على معلم العقل المجرد المتعالي، الذي تتقاطع فيه التصورات، والرؤى، والغايات، والمرجعية في ذلك عائدة الى محاولة الفلاسفة إضفاء الملمح الميتافيزيقي، والمتعالي على المبدأ.

ولكن الطريقة الميتافيزيقية في التعاطي مع المبدأ غير منطقية حسب الفيلسوف حسين حنفي، فهم "يثيرون الغبار، ثم يتقدّمون بالشكوى من عدم الرؤية" فالغموض الذي يعتري الرؤية الميتافيزيقية هو نتاج، وتحصيل لازم عن المقدمات التي بناها العناكب (الميتافيزيقا) لمبدأ الهوية.

(ISSN : 2536 - 9555)

قراءة الصيغة الرمزية التي تمت صورنة المبدأ بها مع الفلاسفة، والتي كانت: "أ=أ" تطرح إشكالات صورية تتعلق بالطريق وليس بالمضمون، يقول مارتن هيدجر – Heidegger :" تقرر هذه المعادلة: أ= أ المساواة بين أ و أ . والمبدأ لا يهدف إلى التعبير عن هذا القصد والحال أن كل مساواة تفترض وجود طرفين على الأقل، إن كل مساواة تفترض وجود طرفين على الأقل.. فهي لا تقدم أ على أنه هو نفسه، فالمعادلة الشائعة لمبدأ الهوية تحجب بالضبط ، ما يودّ المبدأ أن يقوله، أي أن أ هو أ وبتعبير آخر أن كل أ هو بذاته هو نفسه."[14]

وحدة الهوية، وثباتها نابع، وقائم على موقف الفرد من نفسه، ومن غيره، فالذات وحدة لا تتجزأ في مرآة الذات نفسها، فالاعتقاد بتغيُّر الذات، وعدم ثباتها على حال مسألة اهتم بها الفلاسفة في الاسلام، وقصة بهمنيار[15] مع أستاذه ابن سينا حول وحدة الذات معروفة، والتي كانت نتيجتها الاعتقاد في وحدة الجوهر، أو ما نصطلح عليه بثبات الهوية في منظار الذات نفسها، ولكن النظر إلى طبيعتها، وحقيقتها يضعنا أمام عناصر متباينة، ومتضاربة، لأن المشترك الإنساني بتنوّعه العضوي، والنفسي، والاجتماعي عامل رئيس في بناء الهوية، فجوهر الهوية ـ كما يقول هيدجر ـ ينتمي شخصيا إلى التملك المشترك[16]".

ولكن الهوية المنطقية تتواشج، وتتخارج مع أنماط الهوية الأخرى في نقاط، يحددها الفيلسوف حسن حنفي فيما يلي: يماثل لفظ "الهوية" لفظ "الماهية" عند الفلاسفة أي جوهر الشيء وحقيقته .الهوية تماثل بين الأنا والهو في حين أن الماهية تماثل بين الشيء ونفسه. وهو أيضًا لفظ مشتق من أداة الاستفهام "ما"، وضمير الغائب المؤنث "هي". يستعمل في التعريف في حين أن لفظ "الهوية" يُستعمل في الوجود. أما لفظ "جوهر" فهو صورة فنية من المعادن الثمينة ويعني اللب والحقيقة أغلى ما في الشيء.[17] ونجد مع بول ريكور بارقة حل لإشكالية الهوية المنطقية، من خلال التمييز الذي أقامه بين مفهومين للهوية، هما الهوية

في دلالتها الشيئية الجامدة؛ أي الهويّة "العينية Memete "والهويّة الذاتية ipseite بدلالتها الديناميكية.

والدلالة المنطقية التي تحملها الهوية، والتي تبحث عن الثبات داخل الهوية، تظهر في الهوية العينية، ومن خلال استمراريتها في الزمن، ويكون الطبع المظهر الرئيس، والثابت للهوية، إذ يحيل الطبع الهوية الى :".. معنى الوحدة والتجانس والتشابه الأقصى بالمعنيين الكمي والكيفي، والاستمرارية المتصلة دون انقطاع ..في مسار نفس الفرد، مما يفضي إلى تعيين الهوية من حيث هي عنصر لا متغير (جوهر أو ماهية)، وهذا العنصر هو الذي يمنحها دلالة الاستمرارية الدائمة عبر الزمن، والاستمرارية بهذا المعنى هي استمرارية "الطبع le caractere" الذي هي مجموع السمات المميزة للفرد من حيث هو عين الفرد (استمرارية تشبث الذات في الحفاظ على نفسها"[18].

المستوى السلوكي:

الواقع معيار، ومقياس أساس، يعتمده الإنسان في تقييم التوازن في الشخصية، فالحكم على توازن الهوية الفردية، أو الجماعية يقاس بالفعل، فقوة الهويّة الجماعية على سبيل المثال، تدرك من خلال قوته في الحضور، واللعب في الساحة الإقليمية، والدولية، فالهوية العربية أو الإسلامية، بهذا المقياس تكون متضعضعة، وفاشلة في إثبات حضورها، أما الهوية الأوروبية المبنية على تنوع، وتعدّد في المبادئ تكون فاعلة، وناجعة، وكذلك الحال بالنسبة للفرد، فلا قيمة لهوية لا تملك القوة للدفاع عن هويتها، ولبيان هذا المقياس سنتوقف عند قراءة الاعتقاد من حيث هو الخلفية النظرية للفعل، والسلوك.

المستوى الاعتقادي:

السلوك محكّ رئيس للقيمة الإنسانية، فمن خلاله يكرم المرء أو يهان، والذي يتجسد في تلك الأفعال، أو الردود الصادرة عن الكائن البشري، فليس الفعل وحده

(ISSN : 2536 - 9555)

هو المعيار، فردود الأفعال ليست سلوكات مستهجنة دوما، فالمشاركة الوجدانية كاستجابة انفعالية لازمة لبناء، وإحداث التوازن النفسي عند الفرد، أو الجماعة.. فالفعل، ورد الفعل آلية طبيعية، واجتماعية في تنشئة مواقف تكيفية.

ولكن تصنيف الفعل كنشاط إنساني إلى فعل إرادي، ولا إرادي، يظهر لنا أهمية الفكر، والتصورات في تحديد إرادية الفعل، وقصديته، فالموازنة أو المداولة بين الرغبات الممكنة، والتي تمنح الفعل قيمة أكثر، من حيث القدرة على التجاوز، أو انتخاب أحد الممكنات في الوقت الذي يكون فيه التنبؤ بالانتخاب غير ممكن.

يقدّم حسن حنفي تصوُّرا على نوعية المحدد الفاعل في تهوي الهوية، أي في تحوُّلها من حال إلى حال، فالاغتراب الديني حسب حسن حنفي ظاهر في: "..علم العقائد وفي التصوف.إذ تقوم العقائد على قسمة العالم قسمين: الأعلى والأدنى، الخالق والمخلوق، الأبدي والزمني، الخالد والفاني..الأول تستريح فيه النفس، والثاني تشقى فيه.."[19]

يؤسِّس هذا التصوُّر ازدواجية على المستوى الوجداني، للفرد، فالحياة الحقيقية ليست هي التي يرتبط فيها بهذا الجسد، وبهذا المكان، أو الوطن، فتكون هويّته مجرد آلة لممارسة مؤقّتة، لبلوغ العالم العلوي الذي يأمل أن يصل إليه، فالهوية مجال نسبي، وقيد للذات الحقيقية، إذ نلاحظ أن المسلم يعيش ازدواجية على مستوى الحس الوطني، إذ تتقاسمه ميول، ونوازع نحو الأماكن المقدسة، فقلوبهم دوما تهفو إلى تلك الأماكن، فهو ليس هو، بل هو خارج ذلك الهو الذي يعيشه، ويحيلنا الأستاذ جعيط إلى أخطر ظاهرة يعيشها العربي عموما، والمسلم خصوصا، وهي ظاهرة الازدواجية في الشخصية، والتي ربّما تصل إذا جاز التعبير إلى التعدُّدية، وليست ثنائية فقط في الشخصية، فمحدِّدات الأنا مفتوحة، وغير مقيّدة بحدود جغرافية، ومدنية، وهو الأنا الإسلامي، والذي يخضع لمحدد عقدي، والمؤسف أن التعدُّدية التي تشمل العقيدة الإسلامية من خلال مذاهبها

الكلامية والفقهية تنعكس بشكل واضح على السلوك الذي يصدر عن هذا الأنا، والذي عمل الجهل، والمركبات النفسية بالقصور أمام الغرب على تغذيته، يقول جعيط :"إن الأنا عند المحافظ القديم المتخرج من جامعة الزيتونة هو الأنا الإسلامي في أسمى مستوى انه بالتأكيد تغذّى وتربّى في الوطن التونسي، وبقي وفياً لنمط العيش الذي درج عليه منذ الطفولة، تونس وطنه الحسي في حين أن وطنه الروحي هو در الإسلام قاطبة .. [20].

ولا يقف هذا الشعور بالغربة في الوطن الحسي، والمدني الذي ينتمي إليه عند هذا الحد، بل يميل كما يرى الأستاذ إلى تقزيم مجتمعه المدني، وتاريخه الثقافي، فيصبح الصحيح عنده، والمالك لحكم التقدير، كل ما يمتُّ بصلة إلى الدار الإسلامية، وللأسف الإسلام المتمثَّل، وليس الأصيل.وما نلاحظه في الساحة الإسلامية حاليا ليس إلا هويات ممزقة، داخل هوية متمثّلة ذهنيا.

مستوى الفعل:

لو استأنسنا باللسان العربي في فهم وإدراك دلالات الفعل، لوجدنا أن الثابت في الفعل هو التحول، وليس الثبات، فالفعل عند النحاة هو:"ما دلّ على معنى في نفسه مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة"[21] فالفعل كحدث، متعلّق بزمن، والذي يعكس حركية ديناميكية مستمرّة، فالزمن معطى عقلي، متعلِّق بحركة المكان، والزمن المحسوس الفضاء الذي يمارس فيه الفعل، حقل دقيق قابل للتقسيم، والتجزئة، فهو معطى تفسيري.وهذا ما نجده في حقائق الفيزياء التجريبية.

ولكن معايشة الإنسان لهذا الزمن تمنحه بعدا إنسانيا، تجعله يند عن كل تفسير، ويصبح حقلا تأويليا، وهو ما اصطلح عليه هنري برغسون Henri Bergson بالديمومة، فهو استمرار، ومسار تدفقي، فيضي، لا يمكن تحديده بنقطة فاصلة، أو إذا جاز التعبير يمكن القول بأنها نقطة لا طول، ولا عرض لها تفصل الماضي الذي انتهى عن الحاضر الذي هو لحظة الكينونة الإدراكية،

(ISSN : 2536 - 9555)

والشعورية، فحركية الزمن ثابت فيزيائي، يقر بحركية وديناميكية الذات، فلا ثبات لهوية الأنا، من خلال معطياته، ومحدداته، فهي مجال للتغير، والتحوُّل.

ونجد في الهوية السردية مع بول ريكور ثابتاً في بيان التغير الذي تعيشه الهوية الذاتية، فهي: "مسار تكويني يصاغ بفن سردي، وحركة تفاعلية بين الأنا، والآخر تأسيسا للوجود."[22] فهي سيرورة متغيرة، ومستمرة لا تعرف الاستقرار أو السكون، فالقول، أو الادعاء بثبات هوية مجرد افتراض قابل للدحض، وقابل للإثبات، وما قدمته مدرسة التحليل النفسي بريادة سيجموند فرويد Sigmund Freud وتلامذته في طبيعة الصراع النفسي والاجتماعي بين الأنا Ego والهو ID والأنا الأعلى Super Ego دليلا على حركية الهوية الذاتية، فالهوية لا تعيش استقرارا، بل صراعا باطنيا بين قوى الطبيعة الغريزية مجسدة في الليبيدو libido، وقواعد القيم العامة التي تنغرس في النفس الأنا الأعلى (super ego). فالصراع بين حاجيات الطبيعة الحيوية، وما يستسيغه المجتمع يؤسّس لإدراك هويّة" بواحديتها، وتفردها عن غيرها كما هي شعور بالانسجام والتآلف مع إنيتها، إنها انتهاء ما يخصُّها دون أن يخص غيرها[23]..فهي تاريخ من الصراع، والجدل بين الإنية والغيرية، فالغيرية متعددة الدلالة (polysémique) إذ لا يمكن تأسيس لنظرية، أو تصوّر دقيق لها، فهي مجال تأويلي، و"... ليست كينونة ثابتة الخصائص والمقومات فقط، بل يزدوج فيها الثابت والمتغير وبذلك فمفهوم الهوية بمدلوله المنطقي الثابت لا يصدق إلا في مجال المجردات كالمنطق والرياضيات، وإذا كان هذا المبدأ قد صار موضوع أخذ ورد حتى في هذين المجالين، أما في مجالات الواقع والحياة، فالتغيير والثبات متلازمان."[24].

ويكون السرد كقص، وتعبير عن الذات، معبرا للهوّية إلى الخروج في عالم الوجود الانطولوجي، ومادام السرد آلية لغوية، وقدرة ترميزية، فإنّ حضور الغير في السرد جلي، وبارز، فلا ترميز خارج الفضاء الاجتماعي، ويكون بالتالي الآخر

وسيلة للهوية، وكبتا لها في آن واحد، فالهوية السردية تعمل على حد تعبير ريكور على ".. إخراج نصي مقام على ثنائي الذات، والآخر، يشرح الذات ويفسرها من طريق يحدها الآخر طرفا في عملية التلقي والفهم فتتكون داخل سياق زمني وفق صيغ الإنية والهوهوية كتحديدات أساسية تتعرف من خلالها الذات على ذاتيتها.[25]

وخلاصة القول نجد أن القول بثابت الهوية في داخل الهوية الفردية والجماعية مسألة اعتبارية، وتواضعية، للإقرار بالفرد، وتمييزه عن الآخر، ولكن الهوية الكائنة بالزمان ترتبط أيضا بحركيته، وسيرورته، فلا استقرار للذات خارج الزمن، وخارج المتغيرات الثقافية، فالأنا مسار، وقرار، ومشروع إنسان، وليس إنسان كائن، ونستأنس بمقولة سارتر حول الإنسان: "هو ما ليس هو وليس هو ما هو".

هوامش الدراسة:

---

[1] حسن حنفي، محمد إقبال فيلسوف الذاتية، دار المدار الإسلامي، بيروت، الطبعة الاولى 2009 ص: 17.

[2] حسن حنفي، الهوية، ص: 9.

[3] حسن حنفي، الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2012 ص: 63.

[4] المرجع نفسه، ص : 64.

[5] المرجع نفسه، ص : 64/65.

[6] المرجع نفسه، ص : 66.

[7] حسن حنفي، الهويات الجزئية، والهوية الوطنية، موقع: التجديد العربي http://www.arabrenewal.info

[8] حسن حنفي، الهوية، مرجع سابق، ص : 69.

[9] مفكر سوري عراقي، من رواد القومية العربية. ومن مؤلفاته: حول القومية العربية، آراء وأحاديث في القومية العربية، آراء وأحاديث في الوطنية القومية 1951، دفاع عن العروبة.

[10] حسن حنفي، مقال: الهوية والاغتراب في الوعي العربي، موقع: http://www.maaber.org/issue_october13/lookout1.htm

(ISSN : 2536 - 9555)

[11] فتحي المسكيني، الهوية والزمان، دار الطليعة بيروت، الطبعة الأولى 2001 ص : 21.

[12] المرجع نفسه، ص :9.

[13] حسن حنفي، الهوية، مرجع سابق، ص : 69.

[14] مارتن هيدجر، مبدأ الهوية، مجلة: العرب والفكر العالمي العدد الرابع خريف 1988 بيروت ص: 34 .

[15] أبو الحسن بهمنيار بن المرزبان الأذربيجاني، من تلامذة الشيخ الرئيس ابن سينا، من مؤلفاته: "ما بعد الطبيعة"، "مراتب الموجودات"، "التحصيل".

[16] مارتن هيدجر، مبدأ الهوية، مرجع سابق، ص : 41.

[17] حسن حنفي، مقال : الهوية والاغتراب في الوعي العربي، مرجع سابق.

[18] عبد الله السيد ولد اباه، التاريخ والحقيقة لدى بول ريكور: الهوية السردية والذاكرة الحية، موقع مؤمنون بلاحدود، تاريخ الدخول: 04 اكتوبر2015 التوقيت: الساعة 20و 48 .

[19] حسن حنفي، الهوية، مرجع سابق، ص :41.

[20] هشام جعيط، الشخصية العربية والاسلامية والمصير العربي ، دار الطليعة بيروت الطبعة الثانية 1990 ص : 17.

[21] الجرجاني، كتاب التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3 1988 ص : 168.

[22] حاتم الورفلي، بول ريكور... الهوية والسرد، دار التنوير، بيروت .2009 ص: 6.

[23] حاتم الورفلي، مرجع سابق، ص : 19.

[24] ينظر حاتم الورفلي، مرجع سابق، ص : 26/25.

[25] حاتم الورفلي، المرجع نفسه، ص: 27.